مارستانات مصر *

فى العصر الاسلامى

بقلم الدكتور أحمد عيسى بك

١ ـ مارستان زقاق القناديل بالفسطاط

قيل[١] : إنه كان فى الدولة الأموية مارستان فى زقاق القناديل ـ دار أبى زبيد ـ ، وزقاق القناديل هذا ـ ويقال له زقاق القنديل ـ من أزقة الفسطاط ؛ قال القاضى القضاعى[٢] : إنما وسم زقاق القناديل ، وقيل : إنما قيل له زقاق القنديل ؛ لأنه كان به رسم قنديل يوجد على باب عمرو ابن العاص ؛ وقال أبو عبد الله بن المتوج الزبيرى : وكان به دار عمرو بن العاص ، وفيه ولد الإمام الحافظ ابن سيد الناس صاحب كتاب « عيون الأثر ، فى فنون المغازى والشمايل والسير » ، المتوفى سنة ٧٣٤ هـ .

٢ ـ بيمارستان العافر

هذا المارستان[٣] كان فى خطة المعافر[٤] ، التى موضعها ما بين العامر من مدينة مصر (الفسطاط) ، وبين مصلى خولان[٥] التى بالقرافة ؛ بناه الفتح بن خاقان[٦] فى أيام الخليفة المتوكل على الله ، وقد باد أثره .

٣ ـ البيمارستان العتيق بمصر ويعرف بالدعلى
(بيمارستان أحمد بن طولون)

هذا المارستان[٧] يعرف بالأعلى ، أنشأه أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٩ هـ — ٨٧٢م ،

---

* نشرنا فى السنة الاولى «للمعرفة» سبع مقالات من هذا البحث الجليل بعنوان «تاريخ البيمارستانات» كان آخرها ما نشر فى عدد مارس سنة ١٩٣٢ وهذا هو المقال الثامن الذى تقدمه «المعرفة» لحضرات القراء مقدرة مجهود الاستاذ الباحث قدره .

(١) « الانتصار لواسطة عقد الامصار » لابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ هـ ص ٩٩ ج ٤ .

(٢) الانتصار ص ١٣ ج ٤ . (٣) المقريزى ص ٤٠٦ ج ٢ . (٤) هم بنو المعافر بن يعفر بن مرة ابن أدد . (٥) هم بنو خولان بن عمر بن مالك بن زيد بن عريب . (٦) هو الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله العباسى وهو أحمد بن طولون ، قتل مع الخليفة المتوكل فى ليلة واحدة وفى مجلس واحد سنة ٢٤٧ هـ ٨٦١ م . (٧) « الانتصار » لابن دقماق ص ٩٩ ج ٤ .

وقيل سنة ٢٦١هـ ؛ وذكر أن مبلغ ما أنفق عليه وعلى مستغله ستون ألف دينار، وحبس عليه سوق الرقيق وغيره ، ولم يكن قبل ذلك فى مصر مارستان ، وشرط ألا يعالج فيه جندى ، ولا مملوك ؛ وكان يشارفه بنفسه، ويركب إليه يوماً فى كل أسبوع ؛ وقال أبو العباس أحمد القلقشندى[1] : أول من اتخذ البيمارستان بمصر أحمد بن طولون، بناه بالفسطاط ، وهو موجود إلى الآن (أى إلى عصره ، وتوفى القلقشندى سنة ٨٢١ هـ ١٤١٨ م) ، وبلغت أجرة مقعد يكرى عند البيمارستان الطولونى بالفسطاط فى كل يوم اثنى عشر درهماً ؛ وهذا المارستان[2] كان موضعه فى أرض العسكر[3] ، وهى الكيمان والصحراء التى تقع بين جامع ابن طولون وكوم الجارح[4] ، وفيما بين قنطرة السد التى على الخليج ظاهر مدينة مصر ، وبين السور الذى ينفصل بين القرافة وبين مصر ، وقد اندثر هذا المارستان فى جملة ما اندثر ولم يبق له أثر ؛ وقال أبو عمر الكندى فى كتاب الأمراء : وأمر أحمد بن طولون أيضاً ببناء المارستان للمرضى، فبنى لهم فى سنة ٢٥٩هـ ٨٧٢ م ؛ وقال جامع السيرة الطولونية : وفى سنة ٢٦١هـ ٨٧٤م بنى أحمد بن طولون المارستان، ولم يكن قبل ذلك فى مصر مارستان ، ولما فرغ منه حبس عليه دار الديوان ، ودوره من الأساكفة والقيسارية وسوق الرقيق ، وشرط فى المارستان ألا يعالج فيه جندى ولا مملوك، وعمل حمامين للمارستان : أحدهما للرجال ، والآخر للنساء ، حبسهما على المارستان وغيره ؛ وشرط : أنه إذا جىء بعليل تنزع عنه ثيابه وتفتقه وتحفظ عند أمين المارستان ، ثم يلبس ثياباً ، ويفرش له ، ويغدى ، ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ، فإذا أكل فَرُوجاً ورغيفاً أمر بالانصراف ، وأعطى له ماله وثيابه ؛ وفى سنة (٢٦٢ هـ ٨٧٥م) كان ما حبسه على المارستان والعين والمسجد فى الجبل الذى يسمى بـ(تنور فرعون)، وكان مبلغ ما أنفق على المارستان ومستغله ستين ألف دينار ؛ فكان يركب بنفسه فى كل يوم جمعة ، ويتفقد خزائن

---

(١) صبح الاعشى ص ٣٣٧ ج ٣ . (٢) المقريزى ص ٤٠٥ ج ٢ . (٣) فى سنة ١٣٣ تولى أبو عون عبد الملك بن يزيد ولاية مصر باستخلاف صالح بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمى العباسى ، وهو أول من ولى مصر من قبل خلفاء بنى العباس .

فى أيام أبى عون هذا سكنت أمراء مصر العسكر ، وسببه : أنه لما قدم صالح بن على العباسى وأبو عون بجموعهم الى مصر فى طلب مروان الحمار ، نزلت عساكرها الصحراء حيث جبل يشكر ، الذى هو الآن جامع أحمد بن طولون وكان فضاء ، فلما رأى أبو عون ذلك أمر أصحابه بالبناء فيه فبنوا ، وبنى هو أيضاً دار الامارة ومسجداً عرف بجامع العسكر ، وعملت الشرطة أيضاً فى العسكر وقيل لها الشرطة العليا ؛ والى جانبها بنى الامير أحمد بن طولون جامعه الموجود الآن ، وسمى من يومئذ ذلك الفضاء (العسكر)، وصار منزلا لامراء مصر من بعد أبى عون ، وصار العسكر مدينة ذات أسواق ودور عظيمة ، وفيه أيضاً بنى الامير أحمد بن طولون بيمارستانه ، وكان البيمارستان المذكور بالقرب من بركة قارون — التى صارت الآن كيماناً وبعضها بركة على يسار من مشى من حدرة بن قيحف يريد قنطرة السد (النجوم الزاهرة ص ٣٦٢ طبع ليدن سنة ١٨٥٢ م) .

(٤) هو الكوم المتصل بربحة موقف الحجاج ، وكان هذا الخط من أعمر الخطط بالفسطاط .

المارستان وما فيها والأطباء ، وينظر إلى المرضى وسائر المعلولين والمحبوسين من المجانين ؛ فدخل مرة حتى وقف عند المجانين ، فناداه واحد منهم مغلول : أيها الأمير اسمع كلامى! ما أنا بمجنون ، وإنما عملت علىَّ حيلة ، وفى نفسى شهوة رمانة عريشية أكبر ما يكون ؛ فأمر له بها من ساعته ، ففرح بها وهزها فى يده ورازها ، ثم غافل أحمد بن طولون ورمى بها فى صدره ، فنضحت على ثيابه ، ولو تمكنت منه لأثرت على صدره ، فأمرهم أن يحتفظوا به ، ثم لم يعاود بعد ذلك النظر فى البيمارستان .

وقد دخل مصر فى سنة ٥٧٨ هـ ١١٨٢ م ابن جبير[١] الرحالة المغربى العظيم ، وشاهد البيمارستان الذى بالقاهرة ، وقال : إنه مفخرة من مفاخر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ؛ وأطنب فى وصفه بما سيأتى ذكره بعد فى موضعه ، قال : وفى مصر (الفسطاط) مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه ؛ وقال السخاوى[٢] : إن أحمد بن طولون بنى إلى جانب جامعه البيمارستان ، وكان بناء القطائع والجامع وقصره الذى نزل فيه فى سنة ٢٥٦ هـ ٨٦٩م ؛ وقال ابن إياس[٣] : فلما بنى الأمير أحمد بن طولون هذا الجامع ، أنشأ به مارستاناً برسم الضعفاء ، ولم يكن قبل ذلك بمصر مارستان ، وكان فى أحد مجالس البيمارستان العتيق — أى بيمارستان أحمد بن طولون — خزانة كتب ، كان فيها ما يزيد على مائة ألف مجلد فى سائر العلوم يطول الأمر فى عدتها[٤] .

قال أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى فى كتاب « تاريخ مصر وولاتها » ص ٢١٦ ، طبع بيروت :

وقدم أحمد بن طولون إلى (الفسطاط) يوم الخميس لثمان خلون من شوال سنة ٢٥٩ هـ ، وأمر ببناء المسجد على الجبل فى صفر سنة ٢٥٩ هـ ، وأمر أيضاً ببناء المارستان للمرضى ، فبنى لهم فى سنة ٢٥٩ هـ ؛ وقال محمد بن داود :

ألا أيها الأغفال إيهاً تأملوا ... وهل يوقظ الأذهان غير التأمل ؟
ألم تعلموا أن ابن طولون نقمة ... تسير من سفل إليكم ومن عل ؟
ولولا جنايات الذنوب لما علت ... عليكم يد العلج السخيف المجهل
يعالج مرضاكم ويرمى حريمكم ... حبيش[٥] القلب أدهم أعزل

---

(١) الرحلة ص ٥٢ : ولد ابن جبير ببلنسية سنة ٥٤٠ هـ — ١١٤٥م ، وتوفى بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ — ١٢١٧ م . (٢) تحفة الاحباب ص ٤ ج ٤ هامش نفح الطيب . (٣) بدائع الزهور ص ٣٨ ج ١ ، ولد ابن اياس سنة ٨٤٢ هـ — ١٤٤٨ ، وتوفى سنة ٩٣٠ هـ — ١٥٢٣ م . (٤) النجوم الزاهرة ص ٤٨٢ ج ٣ . (٥) هنا نقص .

فيا ليت مارستانه نيط بإسته وما فيه من علج عتل مقلل
فكم ضجة للناس من خلف ستره تضج إلى قلب عن الله مغفل

ولما آلت الدولة الطولونية إلى الزوال بخروج شيبان بن أحمد بن طولون آخر ملوكها من مصر فى ليلة الخميس لليلة خلت من ربيع الأول سنة ٢٩٢هـ، دخلها محمد بن سليمان الكاتب من قبل المكتفى بالله يوم الخميس لمستهل ربيع الأول سنة ٢٩٢ ؛ فأمر بإحراق القطائع، فأحرقت ونهب أصحابه الفسطاط يومئذ ؛ فركب محمد بن سليمان ، فطافها وأطلق من فى السجون، وسكن الناس ؛ ودعا من الغد على المنبر لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده ، وصرف رجال الدولة الطولونية ـ من قضاة وقواد ـ عن الحكم ، وأخرج ولد أحمد بن طولون ـ وهم عشرون إنساناً ـ فلم يبق فى مصر منهم أحد يذكر ؛ نخلت منهم الديار ؛ وعفت منهم الآثار ، وتعطلت منهم المنازل ، وحل بهم الذل بعد العز ، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام .

فأخذ الشعراء فى رثائهم والتحسر عليهم ، فنظموا القصائد الطوال فى ذلك ؛ ومن هؤلاء الشعراء سعيد القاضى ، قال يرثى الدولة الطولونية وما شيدته من جلائل الآثار فى قصيدة مطلعها :

جرى دمعه ما بين سحر إلى نحر ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر

إلى أن قال يرثى البيمارستان[1] :

ولا تنس مارستانه واتساعه وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
وما فيه من قوامه وكفاته ورفقهم بالمعتفين ذوى الفقر
فللميت المقبور حسن جهازه وللحى رفق فى علاج وفى جبر

إلى أن قال :

مآثر لا تبلى وإن باد ربها ومجد يؤدى وارثيه إلى الفخر

الخ ... ؟

أحمد عيسى

(١) تاريخ مصر وولاتها ص ٢٥٦ .